اسم المادة الدراسية : الأدب العباسي (الشعر).

اسم المادة باللغة الانكليزية : Abbasid Literature of poetry

(المحاضرة الثانية عشرة)

عنوان المحاضرة : العباس بن الاحنف .

التدريسي ولقبه العلمي : أ.د. محمد عويد محمد الساير

المرحلة الدراسية : الثالثة

المحاضرة ١٢

العباس بن الأحنف :

عربى من بنى حنيفة، كان آباؤه ينزلون فى خراسان، واتصلوا بالعباسيين ولمع منهم عمه حاجب إذ انتظم بين رجال الدولة، ومنشأ العباس ومرباه ببغداد، ويظهر أنه نشأ فى نعمة وثراء، جعلاه ينصرف عن شعر المديح الذى كان يجذب إليه عامة الشعراء طلبا للنوال والعطاء. وقد أخذ يعيش حياة مترفة، يختلط فيها بالشعراء من أمثال أبى نواس وغير أبى نواس، ولكن دون أن يتردّى فى خلاعتهم ومجونهم. وقد يحضر مجالس الأنس والشراب ولكن دون تعمق ودون إثم، وفى ذلك يقول ابن المعتز :

«كان يتعاطى الفتوة على ستر وعفة وله مع ذلك كرم ومحاسن أخلاق وفضل من نفسه، وكان جوادا لا يليق درهما ولا يحبس ما يملك». وفى أشعاره وصف للكرة والصولجان يدل على أنه كان يمارس هذه الرياضة. ويقولون إنه كان فيه ظرف.

وكأنه كان مثال العربى البغدادى المهذب فى عصره الذى أخذ بأسباب الترف والنعيم أخذا كان له أثره فى ذوقه المضفى المهذب وشعوره الرقيق المرهف. وقد مضى ينفق حياته فى التغنى بعواطفه وحبه، وفى ذلك يقول أبو الفرج: «كان العباس شاعرا غزلا ظريفا مطبوعا. . وله مذهب حسن ولديباجة شعره رونق ولمعانيه عذوبة ولطف ولم يكن يتجاوز الغزل إلى مديح ولا هجاء ولا يتصرف فى شئ من هذه المعانى، وقدّمه أبو العباس المبرد فى كتاب الروضة على نظرائه وأطنب فى وصفه. وقال: رأيت جماعة من الرواة الشعر يقدمونه، وقال: كان العباس من الظرفاء، ولم يكن من الخلعاء، وكان غزلا ولم يكن فاسقا, وقد فتح اشتهاره بالغزل باب قصر الرشيد أمامه، حتى أصبح من ندمائه، وحتى صحبه فى غزواته بأرمينية وأذربيجان من غزله قال:

العاشقان كلاهما متجنّب ...وكلاهما متعتّب متغضّب

صدّت مغاضبة وصدّ مغاضبا ...وكلاهما مما يعالج متعب

راجع أحبّتك الذين هجرتهم ...إن المتيّم قلما يتجنّب

إن التجنّب إن تطاول منكما ...دبّ السّلوّ له فعزّ المطلب

وألقاها إلى إبراهيم الموصلى فغنّى بها الرشيد، فلما سمعها بادر إلى ماردة فترضّاها. ويقال إنها أمرت للعباس وإبراهيم بعشرين ألف درهم مناصفة وأمر لهما الرشيد بأربعين ألفا.

وانعقدت الصلة بينه وبين محمد بن منصور بن زياد الملقب بفتى العسكر، وتصادف أن رأى عنده جارية جميلة تسمى فوز، فوقعت فى قلبه، وأخذ يكثر من زياراته، وهو إنما يريدها، وعرفت حبه، فكانت تصدّ عنه. وهو يزداد حبّا وشكوى من أنها لا تقبل عليه، وأكثر من تصوير إعراضها عنه بمثل قوله:

قالت ظلوم سميّة الظّلم ...مالى رأيتك ناحل الجسم

يا من رمى قلبى فأقصده ...أنت العليم بموضع السّهم

أخذ يكثر من شكواه وتضرعه مصورا سهاده وما دلعته من نيران العشق فى قلبه وغدا مستهاما بها يحبها كل الحب ويفتن بها كل الفتون، حتى لكأنها غدت ليلى وغدا المجون، فهو دائما

يصف صبابته بها ووجده وجدا لم يجده أحد، وجدا يتعمقه حتى ليصطلى بناره المحرقة، وقد مضى يصور ذلك لا فى قصيدة أو قصائد معدودة وإنما فى ديوان رائع، تجد فيه النفوس غذاء روحيّا ممتعا، لأنه يرتفع عن الحس والمادة ارتفاع الشعر العذرى الأموى، بما يصف من حب لا يخمد أواره، من مثل قوله:

الحبّ أول ما يكون لجاجة ...تأتى به وتسوقه الأقدار

حتى إذا سلك الفتى لجج الهوى ...جاءت أمور لا تطاق كبار

نزف البكاء دموع عينك فاستعر ...عينا لغيرك دمعها مدرار

من ذا يعيرك عينه تبكى بها ...أرأيت عينا للبكاء تعار

وكانت تكثر بينه وبينها المراسلات، وربما زارته زورة قصيرة ومضت، مخلّفة وراءها حسراته وآلامه وعذابه، وربما اضطرت إلى أن تهجره طويلا أو قصيرا أو أن تزورّ عنه فى بعض زياراته لها، فكان يجزع أشد الجزع ويبكى أحر البكاء بمثل قوله:

أبكى الذين أذاقونى مودّتهم ...حتى إذا أيقظونى للهوى رقدوا

جاروا علىّ ولم يوفوا بعهدهم ...قد كنت أحسبهم يوفون إن عهدوا

لأخرجنّ من الدنيا وحبّكم ...بين الجوانح لم يشعر به أحد

وخرجت من ملك محمد بن منصور إلى ملك بعض أمراء البيت العباسى وحجّ بها، فمضى يبكيها بدموع غزار مصورا حبه لها وهيامه فى أشعار كثيرة من مثل قوله من رسالة شعرية أرسل بها إليها:

أزين نساء العالمين أجيبى ...دعاء مشوق بالعراق غريب

كتبت كتابى ما أقيم حروفه ...لشدة إعوالى وطول نحيبى

أخطّ وأمحو ما أخطّ بعبرة ...تسحّ على القرطاس سحّ ذنوب

أيا فوز لو أبصرتنى ما عرفتنى ...لطول نحولى بعدكم وشحوبى

وأنت من الدنيا نصيبى فإن أمت ...فليتك من حور الجنان نصيبى

أرى البين يشكوه المحبون كلهم ...فياربّ قرّب دار كلّ حبيب

وعادت، وعاد له عذابه بها كما لم يتعذب أحد، وقد ظل يهتف باسمها وحبها حتى وافته منيته سنة مائة واثنتين وتسعين. ويقال إنه خرج مع غلام له إلى بعض الرياض، وقد اعتراه ضعف شديد، فاستلقى تحت شجرة ورفع طرفه، وهو لا يكاد يرفعه ضعفا، وأنشأ يقول:

يا سقيم الجسم من محنه ...مفردا يبكى على شجنه

كلما جدّ البكاء به ...دبّت الأسقام فى بدنه

ثم أغمى عليه، وأقبل طائر فوقع على الشجرة، وجعل يغرّد، فسمع تغريده، وفتح عينيه، وقال:

ولقد زاد الفؤاد شجى ...طائر يبكى على فننه

شفّه ما شفّنى فبكى ...كلّنا يبكى على سكنه

ثم تنفس تنفسا مديدا فاضت فيه نفسه.

وواضح من كل ما قدمنا أن غزل العباس عذرى طاهر نقى وأنه يمتاز بجزالة اللفظ مع عذوبته كما يمتاز بغزارة المعانى والخواطر حتى لكأنما يستمد من معين فى نفسه لا ينضب. وكان يعمد أحيانا إلى شئ من صور البديع، غير أنها تأتى عفوا، ولا تؤثر أى تأثير فى قوة العاطفة وانطلاقها كالسيل المندفع.

المجون والزندقة:

كثر شعراء المجون وما يرتبط به من وصف الخمر فى هذا العصر كثرة مفرطة، وقد عملت على ذلك أسباب مختلفة، ١- فإن كثرة الشعراء كانت من الفرس، وكان كثير منهم يظهر الإسلام ويبطن الزندقة والإلحاد، وساعد على اضطراب النفوس وتسلط الشك على العقول كثرة المقالات والنحل الدينية وشيوع المذاهب الفلسفية مما جعل كثيرين يستهترون بقيم المجتمع الإسلامية، بل لقد كان من بينهم من يريد تحطيمها تحطيما. **وسبب ثان** يرجع إلى كثرة الرقيق ودور النخاسة التى كأنما كانت أسواقا للعبث. وهو عبث صحبه غير قليل من الفجور، حتى ليمتد إلى الغزل بالغلمان غزلا يصور-عند أبى نواس وأضرابه-انحطاطا خلقيّا شنيعا.

وسبب ثالث هو كثرة اتخاذهم للجوارى والإماء، مما أدّى إلى انحلال الروابط الاجتماعية لتسلطهن على الحياة المنزلية، إذ أخذن مكان المرأة العربية الحرة، وكن مختلفات الأجناس، وكثيرات منهن كنّ قد نشّئن على اللهو والمجون والابتذال والخلاعة تنشئة لم تكن تعرفها المرأة العربية المحصنة.

والذى لا شك فيه أن الكوفة سبقت البصرة وبغداد جميعا لهذا العصر فى الفسق والمجون، إذ غرقت فيهما إلى أذنيها، وكان مما أعدّ لذلك دار نخاسة كبيرة قامت بها منذ أواخر عصر بنى أمية، وهى دار ابن رامين، وكان قد جلب إليها كثيرات من قيان الحجاز وإمائه المغنيات أمثال سعدة وربيحة وسلامة الزرقاء، وتولع بهن كثير من شباب الكوفة وغيرهم أمثال إسماعيل بن عمار ومحمد بن الأشعث وشراعة بن الزّندبوذ، ونظموا فيهن كثيرا من الأشعار المادية التى لا تخلو أحيانا من الفحش. ولم تلبث أن ظهرت جماعة كبيرة من المجان الخلعاء أمثال والبة ومطيع بن إياس ويحيى بن زياد.

ولم يلبث كثير من شعراء البصرة أن أمعنوا وراء شعراء الكوفة فى هذا الفساد الخلقى، يقودهم الخاركىّ، وفيه يقول أبو نواس: «ما مجنت ولا خلعت العذار حتى عاشرت الخاركى فجاهر بذلك ولم يحتشم فامتثلنا نحن ما أتى به وسلكنا مسلكه، ونحن ومن يذهب مذهبنا عيال عليه». وكان طبيعيّا أن ينقل شعراء البصرة والكوفة هذا الفساد والتحلل الخلقى إلى بغداد منذ أخذوا يفدون عليها ويقيمون بها فى عهد المهدى ومن تلاه من الخلفاء، يتقدمهم أبو نواس. ومن مجّانها المشهورين الرّقاشى، يقول أبو الفرج: «كان ماجنا متهاونا بمروءته ودينه، وقصيدته التى يوصى فيها بالخلاعة والمجون مشهورة سائرة فى الناس، مبتذلة فى أيدى الخاصة والعامة وهى التى أولها:

أوصى الرقاشىّ إلى إخوانه ...وصيّة المحمود فى ندمانه»

ويقول ابن المعتز إنها كانت فى الغلمان وشرب الخمر والقمار والهراش بين الديكة والكلاب. وقد اتسعوا فى الحديث عن الخمر ورائحتها ونفحتها ودنانها وسقاتها وحاناتها وأديرنها. وتعرضوا طويلا للرهبان والراهبات وزنانيرهم.

ويروى أن المهدى شهد على أنه زنديق، فأمر بضربه ثلاثمائة سوط على أن يقرّ بالزندقة، فقال: والله ما أشركت بالله طرفة عين، فقال له المهدى: فأين قولك:

اسقنى واسق خليلى ...فى مدى الليل الطويل

قهوة فى ظل كرم ...سبيت من نهر بيل

فى لسان المرء منها ...مثل طعم الزّنجبيل

قل لمن يلحاك فيها ...من فقيه أو نبيل

أنت دعها وارج أخرى ...من رحيق السّلسبيل

تعطش اليوم وتسقى ...فى غد نعت الطّلول

فقال للمهدى: كنت فتى من فتيان قريش، أشرب النبيذ، وأقول ما قلت على سبيل المجون. والله ما كفرت بالله قط، ولا شككت فيه، فخلّى سبيله ورقّ له. وأمثال آدم كانوا كثيرين. ونحن نقف عند ثلاثة من أبرز شعراء الزندقة والمجون وهم حماد عجرد ومطيع بن إياس وصالح بن عبد القدوس.

الزهد:

هذه الصفحة التى صورناها من شعر المجون والزندقة كانت تقابلها صفحة رائعة من شعر الزهد، فقد كانت المساجد مكتظة بالوعاظ والنساك وأهل الحديث والفقه والورع، ومن حولهم العامة، وقد صدقت كثرتهم ربها مخافة وعيده، مؤمنة بأن القيامة موعدها وموقفها مع ذى الجلال وأن العمر وإن طال قصير وأن الدنيا ينبغى أن تكون دار زاد لدار المعاد. وما بنى الوعاظ والنساك من المحدثين يزجرونهم عن التعلق بمتاعها الزائل واضعين نصب أعينهم الموت وتبعات الحياة الموبقة وأن العاقل من عرف أن الناس سفر وعما قليل راحلون فإما عذاب مستديم وإما نعيم مقيم، فأسرع يغتنم بقية أجله بخير عمله مقدما كل ما يستطيع من الباقيات الصالحات.

ويبدو أن كثيرين من القصاص والوعاظ كانوا ما يزالون ينشدون فى وعظهم وقصصهم أبياتا وأشعارا كثيرة منها ما يروونه عن القدماء ممن سبقوهم، ومنها ما ينشئونه إنشاء، فمن ذلك ما يروى عن صالح المرى القاصّ العابد من أنه كان كثيرا ما ينشد فى قصصه ومواعظه:

فبات يروّى أصول الفسيل ...فعاش الفسيل ومات الرّجل

وكان مالك بن دينار المحدث الناسك لا يزال يتحدث فى مجالسه عن الموت، حتى لتكاد تخنقه العبرات، وله أشعار مختلفة يتحدث فيها عن القبور وأهلها وأنه أجل محدود ونفس معدود، وعما قليل يصبح الإنسان ترابا فى تراب، كمن سبقوه، فأولى له أن يتعظ ويعتبر، يقول :

أتيت القبور فناديتهنّ أين المعظّم والمحتقر

وأين المدلّ بسلطانه ...وأين المزكّى إذا ما افتخر

تفانوا جميعا فما مخبر ...وماتوا جميعا ومات الخبر

تروح وتغدو بنات الثّرى ...فتمحو محاسن تلك الصّور

فيا سائلى عن أناس مضوا ...أمالك فيما ترى معتبر

وممن كان يكثر من إنشاد الشعر فى مواعظه سفيان بن عيينة وسفيان الثورى.

وكان من الشعراء الخلعاء المجان من يقلع إقلاعا عن غيه، فيكثر من أشعار الزهد مكفّرا بها عما قدمت يداه من مجون وخلاعة، ومن خير من يمثل ذلك محمد ابن حازم، وكان ينغمس فى اللهو والمجون، حتى إذا بلغ الخمسين من سنّه آلى على نفسه أن لا يشرب كأسا ولا يسير فى طريق غواية، وأخذ يكثر من شعر الزهد حاضّا على القناعة وقطع الأسباب المتصلة بالقلوب من متاع الدنيا الفانى بمثل قوله :

ومنتظر للموت فى كل ساعة ...يشيد ويبنى دائما ويحصّن

له حين تبلوه حقيقة موقن ...وأفعاله أفعال من ليس يوقن

وكثيرون كانوا يأخذون أنفسهم بحياة زاهدة حقيقية، فهم لا يقفون على أبواب الخليفة ولا أبواب الوزراء والأمراء والقواد، بل يكتفون من العيش بالكفاف، وإن عرضت عليهم وظيفة أبوها حرصا على دينهم ورفضا لدنياهم، وممن اشتهروا فى هذا الباب الخليل بن أحمد واضع النحو والعروض، وله فى الزهد والعظة أبيات كثيرة من مثل قوله :

عش ما بدا لك، قصرك الموت ...لا مهرب منه ولا فوت

بينا غنى بيت وبهجته ...زال الغنى وتقوّض البيت

وفى كل مكان يلقانا كثيرون يفرغون للنسك والتبتل والعبادة، مما دفع لظهور مقدمات التصوف فى هذا العصر أو بعبارة أخرى إلى ظهور الحب الإلهى الذى يتجرد عن كل مادة وحسّ والذى يستغرق فيه المتصوفة مشغوفين بالحقيقة الإلهية، وما ترسله على الكون من أضواء الحق والخير والجمال المطلق، ومن أروع ما يصوّر ذلك أبيات رابعة العدوية المشهورة :

أحبّك حبّين: حبّ الهوى ...وحبّا لأنك أهل لذاكا

فأما الذى هو حبّ الهوى ...فشغلى بذكرك عمن سواكا

وأما الذى أنت أهل له ...فكشفك لى الحجب حتى أراكا

فلا الحمد فيذا ولا ذاك لى ...ولكن لك الحمد فى ذا وذاكا

وهى تميز بين حبين: حب الله شكرا لإنعامه المتواصل على الإنسان فى دنياه، وحبه لجماله وجلاله القدسى الذى رفعت الحجب والأستار بينها وبينه، وهو الحب الصوفى .

المصادر والمراجع:

- تاريخ الادب العربي في العصر العباسي الاول : د. شوقي ضيف ، دار المعارف – الاسكندرية ، ١٩٨٦.
- تاريخ الادب العربي في العصر العباسي الثاني : د. شوقي ضيف ، دار المعارف – الاسكندرية ، ١٩٨٦.
- الادب العربي في العصر العباسي : د. ناظم رشيد ، دار الكتب الوطنية – العراق ، ١٩٩٠.
- تاريخ الادب العربي : كارل بروكلمان ، نقله الى العربية : عبد الحليم النجار ، دار المعارف – الاسكندرية ، (د.ت.)
- تاريخ الأدب العربي : د.عمر فروخ ، دار العلم للملايين – بيروت ، ط٤ ، ١٩٨١.
- ديوان الشاعر المتنبي .
- ديوان الشاعر ابي تمام .
- ديوان الشاعر البحتري .
- ديوان الشاعر ابي نواس .
- ديوان الشاعر العباس بن الاحنف .
- ديوان الشاعر الشريف الرضي .
- ديوان الشاعر بشار بن برد .
- ديوان الشاعر ابن الرومي .